النقد الاجتماعي بين البلاغة والتحليل النقدي للخطاب

مراجعة للمشروع البلاغي الخِطابي للدكتور عماد عبد اللطيف

A Review of the Rhetorical Discursive Project by Dr. Imad Abdul Latif

أ.محمد يطاوي•

جامعة السلطان مولاي سليمان/ المغرب

تاريخ الإرسال:2019/01/29 تاريخ القبول:2019/05/05 تاريخ النشر:2019/06/19

الملخص باللغة العربية: يراجع هذا المقال مشروع عماد عبد اللطيف الجامعِ بين البلاغة وتحليل الخطاب. ويستكشف أركانه الأساسية التي يقوم عليها، والتي نلخصها في صورة مثلث بثلاثة أضلاع: البلاغة، والتحليل النقدي للخطاب، والنظرية النقدية. كما يوضح انشغاله بالنقد الاجتماعي عبر التحليل البلاغي، ويخلُص إلى أبرز ما انفرد به من المقترحات في هذا المجال، لا سيما مقترح بلاغة الجمهور ، ثم مقترح دمجه مع التحليل النقدي للخطاب. يستطيع هذا البحث أن يقرب القارئ من الشعب البلاغية التي عُني بها صاحب المشروع، والمتمثلة في البلاغة اليونانية، والبلاغة العربية، والبلاغة الجديدة. وبمقدوره أيضا أن يُبرز عناية عبد اللطيف بمواضيع الخطاب السياسي، والخطاب الديني، والخطاب الإعلامي، والعالم الافتراضي، والخَطابة المرئية، ثم طبيعة تعاطيه معها وفق رؤية اجتماعية ناقدة تُحصن الجماهير ضد الممارسات السلطوية لصناع الخطابات، وتُعدها لمقاومتها. يُيَسر هذا البحث على القارئ المتخصص قراءة المشروع المراجَع، ويُبسط له مداخله الكفيلة بفهم رؤيته النقدية الاجتماعية الطامحة إلى مقاومة السلطة، وإحداث التغيير المثمر في البنى الإدراكية للجماهير. إن النقد الاجتماعي مع هذا المشروع وأمثاله، لم يعد حكرا على علماء الاجتماع والفلاسفة؛ وإنما يدعو علماء اللغة والبلاغة وتحليل الخطاب إلى توظيف تجاربهم وأدواتهم الإجرائية والتحليلية لمباشرة القضايا الإنسانية والاجتماعية

• أستاذ بجامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال، المغرب/yattasim@gmail.com

والسياسية، وإلى الكف عن النظر إلى المادة اللغوية نظرة جافة لا تتعدى الوصف الداخلي القائم على تفكيك العناصر ورصد علاقاتها الجوفية، دونما أي اكتراث بعلاقاتها الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: النقد الاجتماعي; البلاغة الجديدة; بلاغة الجمهور; التحليل النقدي للخطاب; النظرية النقدية.

Abstract: This article reviews the Emad Abdul Latif project, which combines rhetoric and discourse analysis. It reveals its fundamental pillars, which we summarize in the form of a triangle with three ribs: rhetoric, critical discourse analysis, and critical theory. As well as his preoccupation with social criticism through rhetorical analysis, and concludes the most outstanding proposals in this area, especially the proposal of Audience rhetoric, then the proposal to integrate it with the critical discourse analysis.

This research can bring the reader closer to the rhetorical sections of the project owner, represented in the Greek Rhetoric, the Arabic Rhetoric, and the New Rhetoric. He can also draw attention to Abdul Latif's interest to the topics of political discourse, religious discourse, media discourse, virtual world, visual rhetoric, and the nature of his treatment with a critical social vision that protects the masses against the powerful practices of the speech makers and prepares them for their resistance.

This research makes it easier for the specialized reader to read the revised project, and simplifies his introductions to understand his critical social vision, aspiring to resist power, and making fruitful change in the cognitive structures of the masses. The social criticism with this project and its like is no longer confined to sociologists and philosophers; rather,it calls linguists, speech analysts and rhetorical scholars to use of their experiences, procedural and analytical tools to deal with humanitarian, social and political issues, and to stop looking at the linguistic material in a dry manner, that does not exceed the structural description based on the dismantling of elements and the monitoring of Internal relations, without taking into account their social relations.

Keywords: Social Criticism; New Rhetoric; Audience Rhetoric; Critical Discourse Analysis; Critical Theory.

مقدمة: كثيرة هي المبادرات الأكاديمية الرامية إلى تجديد البلاغة العربية، والمشاريع البحثية الهادفة إلى بعثها وتطويعها لتلائم آفاق التطورات الحضارية والإنسانية. وتتباين

الدعوات إلى هذا الشأن بين نداءات لبعث بلاغة ما قبل التقعيد، وأخرى ترفض الدرس البلاغي القديم جملة وتفصيلا، مع الانفتاح على البلاغة الغربية القديمة والجديدة. ومن خضم هذا التنوع والتباين، تصعد محاولة يمكن أن نعتبرها الأقرب إلى ملاءمة مساقات البحث في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، والأقدر على مواكبة التطورات التي وصلت إليها الحضارة الإنسانية؛ الحديث هنا عن تلك الدراسات البعيدة كل البعد عن الإقصاء وثنائية الفصل والوصل، والساعية إلى استدعاء أدوات البلاغة القديمة (اليونانية والعربية) وتطويرها، ليس فقط لمسايرة البلاغة الغربية، بل لاتخاذ علم البلاغة نهجا كفيلا بتحقيق منفعة الإنسان اجتماعيا وثقافيا. وقد اضطر هذا النمط من الدراسات إلى استعارة أطر نظرية وآليات تحليلية ومناهج محددة لتحقيق أغراضه، على غرار تحليل الخطاب، واللسانيات الوظيفية، وأفعال الكلام، والسيميائيات، وعلم الاجتماع، والفلسفة النقدية.

تستدعي الورقة إحدى هذه المبادرات التي تؤمن بقدرة الأدوات البلاغية القديمة على مقاربة القضايا والخطابات المعاصرة، شرط أن تُطوَّر وتُكيَّف لتنسجم مع طبيعة المواضيع الاجتماعية والسياسية والدينية الراهنة؛ الأمر الذي يستوجب فتح الباب أمام إطارات نظرية ونماذج تحليلية ونقدية تحقق الغرض نفسه. إن المبادرة المقصودة هنا مشروعٌ لا يكفي أن ننعته بالبلاغي فقط، وإنما يعوِّل –إلى جانب البلاغة– على مقاربات التحليل النقدي للخطاب، والمبدأ الأساس للفلسفات النقدية. نقصد في هذا الصدد **المشروع البلاغي الخِطابي للدكتور عماد عبد اللطيف**، الذي يرى في البلاغة وتحليل الخطاب السبيل الأمكن لتحليل كل ممارسة إنسانية تواصلية، وبخاصة الممارسة التي تنشد الهيمنة بالقمع والقهر الاجتماعي المفروض على البشر من باب الممارسة الخطابية. كما لا يتعاطى معهما بوصفهما نظريتين معياريتين أو تقنيتين، بل يضفي

عليهما طابعا يتعدى بهما حدود البحث الوصفي أو التفسيري، ويجعلهما مقاربتين ناقدتين للممارسات، والأحداث، والفاعلين الاجتماعين: المنشئين للخطابات والمتلقين لها.

وتحاول هذه الورقة مراجعة هذا المشروع لبيان معالم مبادرته الساعية إلى نقد الخطابات السلطوية بإعمال ما تيسر من الأدوات والمناهج، سواء أكانت قديمة أم حديثة، عربية أم غربية. ثم استخلاص الخلفيات النظرية والنماذج التحليلية والأجهزة المفهومية التي انبنى عليها. كما تنشد بلوغ ركائزه الأساسية، وإسهاماته المعرفية غير المسبوقة في البلاغة وتحليل الخطاب والنقد الاجتماعي، والوظائف الجديدة التي يمكن لهذه القطاعات أن تؤديها. فما الذي يميز هذا المشروع؟ وما هي أسسه المعرفية والنظرية؟ وما هي أركانه وأبرز إسهامات صاحبه؟ وما الجديد الذي جاء به؟

أولا: لماذا المشروع البلاغي/الخِطابي لعماد عبد اللطيف؟ أول الدوافع المشجعة على مراجعة هذا مشروع، خصلةٌ نادرا ما تتوفر في الدرس البلاغي والخِطابي العربي المعاصر، نعني هاجس التوفيق بين البحث العلمي وحياة الناس؛ فمعظم المنجزات البحثية فيه –كتباً ومقالاتٍ وأوراقاً–تعكس العناية البالغة بالقضايا والمواضيع المتعلقة بالحياة اليومية، أو تلك التي تتصل مباشرة بمصالح الناس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ولعل ما يزكي ذلك هو تبئير الخطابات السياسية والدينية والاجتماعية، وخير مثال هو طبيعة المواضيع المطروقة من قبيل خطابات الحرية، والقمع والقهر الاجتماعيين، ووسائل الضبط الاجتماعي عبر الخطابة، وتسويق الأيديولوجيا عبر أشكال البلاغة المرئية المتعددة، مثل العالم الافتراضي، ووسائل الإعلام والخطابة المُذَاعَة.

وتبرز في متون المشروع خاصية أساسية نراها قاعدة ثابتة لدى صاحبه، وهي رفض انفصال الدرس البلاغي أو الخِطابي عن واقع البشر. ونجد في الإلحاح على استحضار الجماهير المقصودة بالخطابات في جل الدراسات، أنطق دليل على ذلك؛ فالمسعى العام لكل الدراسات، والأساس المشترك بين أركان المشروع هو إقدار المخاطَب على اكتساب المبادئ الأساسية للتلقي الحذِر لأي خطاب، والجرأة على مقاومته.

الانخراط في تجديد البلاغة العربية دافعٌ آخر يظهر في مبادرة بعث بعض الأطر والمفاهيم البلاغية العربية القديمة وتطويرها. سيجد القارئ نماذج مثل هذه في استدعاء المنجز البلاغي لكبار علماء البلاغة العرب مثل الجاحظ، وابن المعتز، والجرجاني، وابن الأثير، والزمخشري، وأبي عبيدة وغيرهم. غير أن الرؤية التجديدية اضطرت الباحث إلى محاولة تكييف ما استقاه من المعايير البلاغية القديمة لتنسجم مع تحليل الخطابة المعاصرة. كما اضطرته إلى مراجعة أسس علم البلاغة وأدواته ومناهجه، ثم التركيز على وظائفه الحياتية.

ومن الدوافع كذلك، تقويم الباحث لواقع تدريس البلاغة العربية وراهنية دراستها، والدعوة إلى ضرورة وصلها بمحيطها السوسيو–معرفي؛ فالمشروع يُخرج الدرس البلاغي من كونه مقاربة معيارية تقنية وتعليمية في آن واحد، إلى مقاربة نقدية فاعلة اجتماعيا. ويبدو ذلك واضحا في دراسة الأبعاد المعرفية والثقافية والاجتماعية لمصطلحات كالاستعارة والالتفات، وقضايا كالخروج عن مقتضى الظاهر، وعلاقة النحو بالبلاغة، وإدراج معايير البلاغة والفصاحة القديمة في تحليل الخطابة المعاصرة. كل ذلك في إطار تكامل معرفي بين علوم اللغة، والدرس اللساني الحديث، والمقاربات المعاصرة لتحليل الخطاب (خصوصا الناقدة منها)، وعلم الاجتماع.

ومن الدوافع المُلِحَّة أيضا، عدم الاطمئنان للرؤى المناصرة لبلاغة على حساب أخرى، سواء لامتياز زماني أو مكاني؛ فالناظر في مكونات المشروع يعي أن البلاغة في تصور صاحبه علم إنساني متطور عبر المراحل التاريخية، له امتدادات وخصوصيات جغرافية وثقافية، ولكل أمة وحضارة إسهاماتها. لكن نظرته إلى البلاغة المعاصرة شمولية وتستدعي القديم والحديث، وأدوات تحليلية غنية ومتنوعة، سواء أكانت بلاغية أم من علوم مجاورة.

بيد أن الدافع الأكثر تحفيزا حضاريٌ تاريخيٌ، أقصد هنا الخوض في التقاطعات والانفصالات البلاغية بين حضارات عدة، مثل الحضارة العربية، واليونانية، والمصرية، والصينية. فقد حوى المشروع في عديد من المقالات والكتب موقفا حاسما من مسلمة مقلقة، وهي كون البلاغة اختراعا يونانيا؛ مؤكدا في المقابل أن البلاغة وليدة كل تجمع إنساني ومتطورة بتطور الأمم والعمران. وفي الصدد نفسه، حاول المشروع تسليط الضوء على بلاغات مُغيَّبة أو مهمشة بفعل التحولات التاريخية، والحركات العلمية النشطة في فترات والمتراجعة في فترات أخرى، كالبلاغة المصرية، والصينية، والأفلاطونية.

وعموما، تبقى أبرز سمات مشروع عماد عبد اللطيف هي الالتزام بمتانة الأطر النظرية والتنوع في الطروحات التطبيقية، وتعدد المناهج ومناسبتها للمواضيع الاجتماعية التي تتصف بالجدة والطرافة. غير أن المشروع –من الناحية النظرية والمنهجية–يقدم نفسه في صورة مثلث بثلاثة أضلاع: البلاغة والتحليل النقدي للخطاب، والرؤية الاجتماعية الناقدة؛ فإنْ تعددت المواضيع السياسية والثقافية والدينية والإعلامية، فإن الإطار النظري الموظف في مقاربتها لا يخرج عن هذا الثالوث، فغالبا ما يعتمد الباحث أحد المناهج البلاغية القديمة أو الحديثة (خصوصا بلاغة الجمهور)، أو إحدى مقاربات التحليل النقدي للخطاب، أو يوفق بين الإطارين. لكن الممارسة النقدية والمنظور

الاجتماعي لا يغيبان في أي موضوع، وكيفما كانت طبيعة الإطار التحليلي المعتمد. فيكون المشروع نقديا اجتماعيا بامتياز، بدليل الحضور الدائم لهاجس التغيير الاجتماعي.

وعليه، يتعين إيضاح ملامح المشروع البلاغي لعبد اللطيف وبيان أضلاعه الثلاثة المذكورة بالتفصيل والتعليل.

ثانيا: الأضلاع الثلاثة للمشروع:

1. البلاغة: نلفي في مجمل الأبحاث النظرية والتطبيقية للدكتور عماد عبد اللطيف انشغالَه الكبير بالبحث البلاغي على اختلاف شعبه وقضاياه، فالمطلع على مشروعه العلمي سيلاحظ لا محالة أن البلاغة تحتل مرتبة الصدارة بين اهتماماته المعرفية، سواء تعلق الأمر بكتاباته البلاغية الصرفة أو الأخرى المعنية بتحليل الخطاب، أو تلك التي توفِّق بين المجالين معا. وقد أسعفتنا القراءة الفاحصة للأعمال المذكورة في الوصول –قدر المستطاع–إلى المجالات والقضايا البلاغية التي عُني بها؛ إذ اتضح أنه لم يقتصر على مجال بلاغي معين، أو شعبة واحدة، كما أنه لم يُوطِّن نفسه في إطار زماني أو مكاني محدد، وإنما يعكس مشروعه أنه ذو نزعة موسوعية ونظرة شمولية دفعته إلى محاولة مقاربة ما أمكن من الشعب والقضايا البلاغية التي طرحت –ومازال تطرح–إشكالات وتحديات في الساحة العلمية العربية، وخاصة في حقلي البلاغة وتحليل الخطاب. وفيما يلي، نستعرض أهم الشعب البلاغية التي شكلت مركز اهتمامه.

1.1. البلاغة القديمة:

1.1.1 البلاغة العربية: تنبع عناية عبد اللطيف بالبلاغة القديمة من وعيه الراسخ بضرورة استحضار التراث العربي واليوناني، والنظر في التراكم المعرفي الذي تزخر به

الحضارتان؛ إذ لم ينهج تصورا قائما على الفصل والوصل بين البلاغتين، وإنما يتأرج بينهما وفقا لهاجسه البحثي ودافعية وطموح معرفيين. دليل هذا الوعي هو عنايته بالآراء البلاغية عند العرب واليونان في معالجة كثير من الإشكالات، فبالنظر إلى ما ألفه أو شارك في تأليفه من الأبحاث البلاغية ذات التوجه التقليدي، يكتشف القارئ معالجته لعدد من القضايا باستدعاء مواقف علماء قدامى، وأصدق الأمثلة على ذلك هو دراسته للخطابة بين العرب واليونان، ومصطلحات بلاغية كالاستعارة والالتفات عند العرب، وأثر أفلاطون في البلاغة العربية، وموقف أفلاطون من البلاغة بصفة عامة، وبلاغة الشرق والغرب، وبلاغة الصمت والكلام.

أبرز عمل يؤكد عنايته بالبحث في التراث البلاغي العربي هو المقال المعنون بـ(أزمة المصطلح البلاغي العربي: مظاهر وأسباب ومقترحات)[1]، ففيه أثار قضية أزمة المصطلح البلاغي القديم والمعاصر؛ وما دام هدفنا في هذا المحور هو تعقب اهتمامه بالدرس البلاغي التراثي، فإننا نستدعي مقاربته لهذه الأزمة المتعلقة بالمصطلح القديم. استعرض الباحث في مقاله أهم مظاهر تلك الأزمة ولخصها في ثلاثة: تعدد التسميات للمصطلح الواحد، وتعدد المفاهيم التي يشير إليها المصطلح الواحد، ثم وجود مفاهيم بدون مصطلحات دقيقة. كما ذكر أكثر الأسباب إثارة لهذه الأزمة، وحصرها في حساسية بعض العلماء –خاصة المفسرين–في تعاملهم مع معاني القرآن في مبحثي ألفاظ القرآن وإعجازه والمدونتين: البلاغية (المجاز والبديع مثلا) والتفسيرية (السجع والفاصلة مثلا)، والاحتكام في تحديد المفهوم للدلالة اللغوية للمصطلح عند بعض العلماء، ثم امتداد الإسهام البلاغي العربي عبر حقول معرفية وحقب زمنية وبيئات جغرافية شاسعة ومتمايزة. وفي معرض مقاربته لهذه القضية، انفتح على آراء أشهر علماء البلاغة العرب، مثل عبد القاهر الجرجاني والزمخشري وأبي عبيدة وابن المعتز.

وفي كتابه الموسوم بـ(تحليل الخطاب البلاغي: دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف) يتخذ عبد اللطيف من الكتابات العربية التراثية حو الالتفات(تحولات الضمائر مع ثبات المرجع)، مدخلا لقراءة التراث البلاغي عامة؛ مركزا على أربعة أبعاد أساسية: بنى المفاهيم والمصطلحات، والوظائف البلاغية العامة والخاصة للأساليب، والصراع بين نفي الأساليب البلاغية وإثباتها، وطرق تأليف كتب البلاغة التراثية[2]. تطرق الفصل الأول إلى قضية البنى الاصطلاحية للأساليب البلاغية العربية مركزا على سياقات التأصيل المصطلحي للأساليب والتداخل المفهومي الحاصل بالانتقال من حقل معرفي إلى آخر، كالبلاغة والنحو والعلوم الشرعية وفقه اللغة. كما توقف الباحث عند غزارة المفاهيم التي تحوم حول مصطلح الالتفات تحديدا؛ ولإبراز ذلك انفتح على آراء خمسين عالما من علماء البلاغة العربية القديمة، مبينا ملامح تلك الغزارة والعوامل المسؤولة عنها مثل ارتباط البحث البلاغي بقداسة النص القرآني، وتعدد الحقول المعرفية التي احتضنت قضية الالتفات، ثم الالتباسات الحاصلة في القراءات والشروح لنصوص من البلاغة القديمة، فتعالق مصطلح الالتفات بقضية الترادف.

أما الفصل الثاني، فقد استنتج كيف أنتج البلاغيون العرب الوظائف البلاغية والجمالية والاجتماعية للأساليب، تطبيقا على أسلوب الالتفات؛ مميزا بين وظائف عامة تخص الأساليب ككل، وأخرى خاصة، تخص المواضع المحددة التي ترد فيها، في سياقات محددة. كما خصص فصلا لدراسة العلاقة بين النحو والبلاغة من زاوية تطور إدراك الأبعاد البلاغية لظواهر الخروج عن مقتضى الظاهر، تطبيقا على ظاهرة الالتفات التي تعد إحدى أبرز هذه الظواهر. وأخيرا قدم طريقة غير مألوفة في تحليل التراث القديم، تستند إلى أن فهم هذا التراث لا يكون بتطور فهم مقولاته، أو رجاله، أو كتبه، أو علاقاته بالمعارف الأخرى فسحب، بل أيضا من خلال فهم تطور طرق تأليف

الأعمال البلاغية. وقد اختص الفصل الأخير من كتاب (تحليل التراث البلاغي) باستكشاف كيفية بناء المؤلفات البلاغية العربية، مميزا بين طريقتين من طرق التأليف البلاغي، استنادا إلى طرق إيراد المفاهيم، وتعريف الشواهد مع تحليلها.

قضية أخرى شغلت الباحث عماد عبد اللطيف في الشق المتعلق بالبلاغة القديمة في مشروعه عامة، وهي موقع الاستعارة في الثقافة العربية بوصفها مركزا لتقاطع مجموعة من الحقول المعرفية؛ وقد تعرض لهذه المسألة في عديد من المواضع، أهمها تصديره لكتاب(الاستعارة المرفوضة في الموروث البلاغي والنقدي)[3] للدكتور أحمد يوسف علي؛ ففي متن التصدير ذهب إلى أن منطلق الإشكالات التي تطرحها الاستعارة كان مرتبطا بقداسة خطاب الوحي والخطاب الدارس له والمتمثل في البلاغة القرآنية، فقد أوضح أن الاستعارة استدعت نشاطا معرفيا هائلا نظرا للطاقة المجازية العظمى التي يتسم بها الخطاب القرآني، مما حولها إلى ساحة للخلافات المعرفية وبخاصة البلاغة واللغة والنقد والأدب والعقيدة. غير أنه لم يفته أن يشير إلى الدور اللافت للانتباه الذي اضطلع به نقد الشعر وروايته، وما أثارته ثنائية القديم والجديد خلال القرن الثالث للهجرة من صراعات معرفية وذوقية؛ إذ كانت الاستعارة إحدى بؤر المعارك والخصومات بين النقاد والرواة، من حيث وظائفها وقيمها الجمالية، وكذا تأرجحها بين الدعوة إلى الاحتكام إلى القيود الموروثة والاتجاه الحداثي الداعي إلى التجديد والابتداع[4].

وقد لقيت الخطابة بدورها عناية بالغة الأثر لدى عماد عبد اللطيف، إذ استنبط إطارا نظريا لتحليلها من كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ؛ كان ذلك في مقاله المسمى بـ(إطار مقترح لتحليل الخطاب التراثي تطبيقا على خطب حادثة السقيفة)[5]، حيث بين المستويات التي ينبغي اعتمادها في تحليل الخطابة بناء على المعايير البلاغية للخطابة

كما أصّل لها الجاحظ، وهي: تفقد الأداء الصوتي ساعة الخطبة، وتفقد سمات الأسلوب البلاغي(إيجاز، إطناب، التشديق، الهذر، المناسبة، قوة الحجج، تخير الألفاظ...)، ثم مراجعة تقنيات الأداء الكلامي؛ مثل ساعة الصمت وساعة الكلام والاستعداد النفسي والمظهري، فوضوح الموقف الخَطابي وعلاقته بالواقع. والحقيقة أن الباحث قد حاول بهذا المقترح أن يؤصل لنموذج تحليلي أصيل للخطابة العربية الموروثة من صلب التراث البلاغي العربي القديم، إيمانا منه بأن للخطابة العربية خصوصية وتفردا يشترطان أن يكون تحليلها منسجما مع السياق المعرفي الذي يحتضنها، وفي ذلك وعي كبير بأهمية التواصل المباشر مع التراث.

2.1.1. البلاغة اليونانية: لم يتوقف المنحى التراثي في البحث البلاغي مع عماد عبد اللطيف عند الحدود الجغرافية للحضارة العربية، وإنما وصل إلى الحضارة اليونانية كذلك؛ بل إنه تجاوز إحدى أخطر المشكلات الثقافية التي تفرض نفسها في مجال البحث في التراث البلاغي العربي في العصر الراهن وتُربكه، وهي مركزية أرسطو وادعاء تبعية البلاغة العربية له بالإطلاق. كان هذا في دراسته المعنونة بـ(أفلاطون في البلاغة العربية، من التهميش إلى الاستعادة)[6]، إذ يقول في ذلك: "**في مقابل هذا الاحتفاء العربي بمؤلف أرسطو عن البلاغة يمكن أن نلحظ – بسهولة – ضعف اهتمام العرب القدماء بمؤلفات أخرى عن البلاغة حظيت في السياق الغربي باهتمام كبير، لعل أهمها محاورتا "جورجياس" و"فيدروس" لأفلاطون. فعلى الرغم من أن موضوع هاتين المحاورتين هو البلاغة، وأن بعض أعمال أفلاطون كانت معروفة للعرب، فإنه لم تصل إلينا أية معلومة عن وجود شرح، أو تلخيص، لأيهما في التراث العربي القديم، باستثناء بضع فقرات كتبها الفارابي،..**"[7].

نسجل في هذا القول شهادة للباحث بخصوص الإفراط في الاحتفاء بأرسطو في البلاغة العربية وحجب النظر عن بلاغة أفلاطون. وهو حجب علله في موضع آخر بكون محاورتي جورجياس وفيدروس لم تترجما، وإن كان العرب قد ترجموا لأفلاطون في السياسة والأخلاق والفلسفة. ومع ذلك، فإن الباحث قد زاد على هذه الإشارة الدقيقة والخفية، بعض ملامح حضور البلاغة الأفلاطونية في الثقافة العربية، وأجلاها ما أورده الفارابي في فصله (أفلاطون في الإسلام) من المقتطفات المترجمة التي تعزى إلى الفكر البلاغي الأفلاطوني، وكلها تتعلق بالتساؤل حول ماهية البلاغة بين كونها علما أم تقنية، وطرقِ الخطابة من تقسيم وترتيب، ثم الحديثِ عن الجدل بين المشافهة والمخاطبة.

والحقيقة أن هذه الخلاصة من عماد عبد اللطيف تجد ما يؤازرها قديما وحديثا، إذ أكدها جميل صليبا في حديثه عن الموضوع عينه، مدرجا قولا للشهرستاني جاء فيه: "**إن المتأخرين من فلاسفة الإسلام قد سلكوا طريقة أرسطوطاليس (أرسطو) في جميع ماذهب إليه وانفرد به، سوى كلمات يسيرة ربما رأوا فيها رأي أفلاطون والمتقدمين**"[8]. ولم يكتفِ الباحث بما ورد عند الفارابي من بلاغة أفلاطون، بل إنه استشهد بحضورها الذي يكاد ينتفي في التراث العربي، خصوصا لدى الجاحظ في (الحيوان)[9] عند مناقشته لشروط الترجمان ومستوى تطابق معرفة المترجم مع الكاتب الأصلي، ثم عند القرطاجني في (المنهاج)[10] الذي استشهد بأفلاطون في سياق حديثه عن بناء الصورة في التخييل الشعري وعلاقة الصدق بالفن والأدب. فتتجلى أولى المهمات التي نهض لأجلها عماد عبد اللطيف في مسعى التنقيب في البلاغة القديمة، وهي تقويم القادم البلاغي من اليونان إلى الثقافة العربية، مع تسليط الضوء على المسكوت عنه وغير المعلن.

ومن بين الإسهامات البحثية في البلاغة القديمة لعماد عبد اللطيف، نستحضر هنا موقفه من مسلمة فرضت نفسها بقوة في الساحة الأكاديمية العربية، وهي كون علم البلاغة -كباقي العلوم-وليد الاجتهاد الغربي(اليوناني-الروماني)؛ إذ ينفي هذه المسلمة معتبرا أن البلاغة: "**لم تكن اختراعا يونانيا، بل هي ثمرة من ثمرات كل تطور حضاري، حيث تتلازم البلاغة مع العمران**"[11]. ويستند في ذلك إلى واقع الاكتشافات العلمية الحديثة للحضارات القديمة -كمصر والصين والهند والعراق وفارس-التي أثبتت أنه حيثما وُجد تواصل سياسي أو قضائي أو عُرفي، فثمة خطابة وتخاطب؛ فكون هذه الحضارات أُمماً كانت قائمة على نظام إمبراطوري أو ملكي، يعني أن لها منظومات مؤسساتية وعلاقات مع غيرها، وتلك سياقات لابد فيها من البلاغة والخطابة والجدل. فهم مؤسس على مسوغات علمية وتاريخية ومنطقية كهذا، من شأنه أن يكوّن لدى صاحبه قناعة بأن العلم لا يُقاس بقصب السبق، وإنما يُقوَّم بالدقة والموضوعية والصدق والنسبية، مع قدرته على خدمة البشر؛ ذلك ما توصل إليه الباحث من خلال إجراء مقارنة بين البلاغتين: اليونانية والمصرية. ويُخبرنا مقال له بعنوان (في مديح الصمت والبراعة: إطلالة على بلاغات منسية)، بتمييزه بين البلاغتين من جهة البعد الأخلاقي مثلا، فقد أبرز أن البلاغة المصرية القديمة قامت على أسس الصدق والعدل والحق في تقويم الإنتاج الكلامي، في حين أن نظيرتها اليونانية انبنت على تحقيق الغلبة بالحق أو غيره كالسفسطة والتلاعب[12]. يظهر هذا تحديدا حينما ذهب إلى أن المصريين القدامى يعتبرون البليغ كلَّ متكلم بارع اتصف بالسلوك القويم، أما عند الإغريق فالبليغ كل من حقق مصلحته خطابةً أو تخاطباً دونما عناية بالأخلاق والأدبيات العامة؛ وفي ذلك يستشهد بطرد أفلاطون للخطباء من جمهوريته وتمكين الفلاسفة من عرشها، وبكون البلاغة وسيلة للترقي الاجتماعي والتهافت من أجل السلطة عند اليونان. وهو في الوقت

ذاته، ينتقد وسائل الضبط البلاغي في مصر القديمة؛ بوصفها أدوات للهيمنة، والإقصاء، وفرض الصمت لصالح ترسيخ السلطات المتنفذة، في مقابل الحريات البلاغية التي تمتع بها اليونانيون القدماء.

2.1. البلاغة الجديدة: تظهر عناية عماد عبد اللطيف بالبلاغة الجديدة في ثلاثة مقالات: (البلاغة الغربية المعاصرة: مدخل موجَّه للباحث العربي[13]/ مناهج الدرس العربي المعاصر مقاربة نقدية[14]/ مبادئ البلاغة: كيف نطوع البلاغة الكلاسيكية لدراسة الخطابة المعاصرة؟[15])؛ ومنها يُستنتج وضعُه أسسَ ثلاثِ محطات أساسية لتلبية حاجات الباحث العربي معرفيا، أولها هي الاطلاع على البلاغة الجديدة في موطنها الأصلي وباتجاهاتها المتعددة والمختلفة، والثانية هي نقدُ ما تراكم فيها من مناهج ومقاربات لدى العرب وتجويده، والثالثة هي محاولة بعث البلاغة التقليدية(اليونانية والعربية: خاصة الجاحظية) وتكييفها لتصير صالحة لأن تُطبَّق على المواد والمتون المعاصرة. ويمكن أن نعد المحطة الثالثة خطوة جديدة في مشروع تجديد البلاغة العربية الذي أُعلن منذ ثلاثينات القرن العشرين، وإسهاما آخر لإقامة جسور بينها وبين البلاغة الغربية المعاصرة. كما يمكن أن نعتبر هذه المحطات الثلاث –مجتمعة–لبنة أساسية لمشروع بلاغي معاصر ومتكامل.

إن أول ما يستحق مناقشته من بين ما طرح صاحب المشروع في هذه المحطات الثلاث هو إشكال التسمية، ذلك أنه استعرض ثلاثة أوصاف رائجة في الأوساط البحثية العربية لهذا التخصص: البلاغة الحديثة، والبلاغة المعاصرة، ثم البلاغة الجديدة.[16] ويرد الباحث سببَ هذا التعدد في الاصطلاح على مفهوم البلاغة الجديدة إلى أخذ تلك الأوصاف على وجه الترادف في الاستعمال من لدن الباحثين العرب، إلا أنه أشار إلى أن التعدد على هذه الشاكلة قد أثار مشكلتين اثنتين: الغموض في مفهوم البلاغة

الجديدة، وإرباك الباحثين في التعامل معه مع مرور الوقت؛ وقد علل ذلك بكون المعاصر اليوم سيصبح حديثا بعد فترة من الزمن، وقد يغدو قديما بعد فترات. لذلك، اشترط أن يُقرن وصف البلاغة –سواء الجديدة أو الحديثة أو المعاصرة–بقرينة زمنية محددة للفترة المتحدث عنها، أو القضية المعالجة، أو الموضوع المطروق.

ولعلنا نرى في هذا الاقتراح حلا نسبيا ومخرجا سلسا لإشكال مربك يُلاحظ في إطلاق تسمية البلاغة الجديدة، خصوصا إذا نظرنا في ما تحيل إليه عند بعض الكتاب العرب الذين أدرجوا –مقتنعين– تخصصات لسانية غير محدودة في سياق البلاغة الجديدة، جالبين إليها معظم ما ظهر واستقر من النظريات اللسانيات الحديثة بوصفها اتجاهات بلاغية قائمة، كالتداولية، ولسانيات النص، وتحليل الخطاب، والوظيفية، وفلسفة اللغة، والملفوظية، وحتى السيميائيات...[17]؛ ونعتبر مقترح عماد عبد اللطيف حلاً لهذا الإشكال الأخير بالنظر إلى إلحاحه على ضرورة إرفاق مصطلح "البلاغة الجديدة" بتحديد دقيق للفترة المعنية والموضوع أو القضية المدروسة لإزالة اللبس المعرفي والتاريخي. بل إنه يفترض زوال الأوصاف الثلاثة مستقبلا، لأن ما هو حديث أو معاصر أو جديد اليوم قد يعتبر قديما غدا.

وبالنسبة إلى موضوع البلاغة الجديدة، يرى عماد عبد اللطيف أن البلاغة غدت الساحة التي تليق بدراسة الحجاج منذ كتاب "الخطابة" لأرسطو[18]، وأن هذا الأمر تأكد مع بيرلمان(Perlman) وتيتيكا(Tyteca) في كتابهما" البلاغة الجديدة: مصنف في الحجاج". وبعقد المقارنة بين موضوعي الكتابين، تثبت صحة هذا الادعاء، فكلاهما يؤصل للحجاج الخَطابي ومصادره وتقنياته وأنواعه ومبادئه؛ ذلك ما حدا به –في حديثه عن البلاغة بوصفها ساحة الدراسات الحجاجية–إلى أن يستخلص بأنه كما اتُخذ كتاب أرسطو المصدرَ الأساس لاهتمام العرب القدامى بالحجاج، يأتِي كتاب بيرلمان وتيتيكا

في عصرنا ليؤدي الوظيفة ذاتها. بل إنه اعتبر الكتاب الثانيَ إحياءً للأول، من خلال بعث أطروحاته الجوهرية وتطويرها لتصير ملائمة للتطورات التاريخية[19]. ومنه تكون البلاغة الجديدة في المنظور الغربي متمحورة حول الحجاج بشكل كبير، والحجاج الخَطابي بالتحديد. كما يمكن أن نستفيد من ذلك أن البلاغة الجديدة هي إحياء لبلاغة أرسطو وتجديد لها من خلال جهود بيرلمان وزملائه.

يستمر عماد عبد اللطيف في رصد نقاط التلاقي بين الكتابين من زاوية نظر أخرى، وهي المتعلقة بالأقطار العربية الأكثر التفاتا إلى الحجاج الخَطابي سواء مع أرسطو أو بيرلمان وتيتيكا؛ إذ نبه إلى مصادفة تاريخية تتجلى في افتتان بلاغيي المغرب العربي بدراسة الحجاج عند أرسطو قديما وبيرلمان وتيتيكا حديثا، لتتقدم أبحاث نظرية الحجاج في باقي الدول العربية في مرحلة تالية. غير أن الأمر لا يمكن أن يكون مجرد صدفة، وإنما له مسوغاته التاريخية والمعرفية المتمثلة في الحركة النشطة للخطابة في بيئات علمية مختلفة في المغرب والأندلس، وبخاصة في العلوم الشرعية كالفقه وأصوله والعقيدة؛ إذ تُخبرنا كتب عديدة بالصراعات الفقهية والعقدية والنحوية بين المذاهب والفرق التي شكلت الخَطابة والمناظرة والجدل ميدان الفصل فيها(خير مثال مناظرات ابن حزم والباجي)، وتلك أجناس بلاغية حجاجية بامتياز، اضطرت العلماء إلى البحث والتنقيب عن أصول الحجاج عند العرب وغيره، وتأليف كتب متخصصة وتعليمية فيه[20].

وبالنظر إلى اتجاهات البلاغة الجديدة، فقد حصرها الباحث في تسعة[21]: النقد البلاغي/ دراسات الحجاج/ البلاغة الإدراكية/ البلاغة المرئية/ البلاغة الرقمية والافتراضية/ البلاغة عبر الثقافات/ البلاغة النقدية/ القراءة الفاحصة/ البحث في البلاغة والأيديولوجيا. إن المثير للانتباه في هذا التصنيف لاتجاهات البلاغة الجديدة

عند الغرب، هو أن الباحث قد انفرد باستنباط اتجاهات غير معلنة عند غيره من الدارسين العرب؛ وبسبب إعلانه هذا، يُطرح سؤالان: ما البلاغة الجديدة؟ وما موضوعها؟

لسنا هنا في هذه المراجعة بصدد الإجابة عن مثل هذه الأسئلة من خارج مشروع الدكتور عماد عبد اللطيف، بقدر ما نتوق إلى الكشف عن الدلائل والقرائن التي استند إليها في تصنيفه لاتجاهات البلاغة الغربية غير التقليدية، أو ما فضل أن يسميه بالبلاغة المعاصرة[22]. لذلك وجب التمييز بين مفهوم البلاغة الجديدة كما أصل له بيرلمان وتيتيكا، ثم ما يقصده عماد عبد اللطيف من إطلاق تسمية (البلاغة الغربية المعاصرة)؛ إذ توخى في مقاله (البلاغة الغربية المعاصرة: مدخل موجَّه للباحث العربي): "**تقديم مشهد بانورامي لحالة علم البلاغة في العالم الغربي الناطق بالإنجليزية في الفترة من 1980 إلى 2015؛ بهدف تعريف القارئ العربي بالانشغالات الراهنة في حقل الدراسات البلاغية**"[23]. وإن تركيزه على انشغالات البلاغة الراهنة يوحي بأنه عُنيَ بالبحث عن مستجدات البلاغة في العالم الغربي، فبالرجوع إلى أمرين اثنين بالغي الأهمية، وهما إطلاق تسمية البلاغة المعاصرة بدل الجديدة وتعقب الأبحاث البلاغية في فترة محددة(2015/1980)، يتأكد أنه حاول أن يرصد تطور البلاغة الجديدة في المراحل التي جاءت بعد تأصيل مفهومها وتشييدها تخصصا قائم الذات منذ المؤلف التأسيسي لها (البلاغة الجديدة: مصنف في الحجاج) إلى نهاية سبعينات القرن العشرين.

ومن خلال هذا الرصد لتطور البلاغة الغربية، يتضح أن عماد عبد اللطيف قد توصل إلى مجالات أخرى –غير دراسات الحجاج كما استقر منذ بيرلمان وتيتيكا (1958)– انفتح عليها البحث البلاغي الغربي المعاصر؛ مما يعنى أن البلاغة الجديدة،

حسب هذا التصنيف لصاحب المشروع، انتقلت إلى مرحلة أخرى تضم إلى جانب الحجاج، توجهات أخرى محورية مثل: النقد البلاغي، والإدراك، والمرئيات، والعالم الرقمي والافتراضي، والأيديولوجيا، وصراع الثقافات أو تعايشها. وبذلك تكون البلاغة الغربية منذ العقد السادس من القرن العشرين إلى سنة 2015 أمام مرحلتين: الجديدة(الحجاج) والمعاصرة (الاتجاهات التسعة). بيد أن هذا التصنيف يطرح سؤالين مقلقين: هل تشكل هذه الاتجاهات مقاربات أخرى في البلاغة الجديدة؟ وهل يعني انتقال البلاغة إلى مواضيع ومتون جديدة انبثاقَ اتجاهات جديدة؟

ننتقل إلى إسهام آخر بالغ الأهمية من عماد عبد اللطيف في مسار تجديد الدرس البلاغي وتجسير الهوة بين القديم والجديد، ثم بين العربي والغربي؛ نعني هنا مقترحين آخرين من صاحب المشروع: يرمي الأول إلى تطويع البلاغات التقليدية لدراسة الخطابات الراهنة، وخصوصا الخطابة السياسية؛ ثم دراسة الخطابة القديمة بالدمج بين آليات بلاغية جديدة ومناهج تحليلية نقدية معاصرة. جاء المقترحان في عملين منفصلين، أحدهما نظري (مبادئ البلاغة: كيف نطوع البلاغة الكلاسيكية لدراسة الخطابة المعاصرة؟[24]) وآخر تطبيقي (إطار مقترح لتحليل الخطاب التراثي تطبيقا على خطب حادثة السقيفة)[25].

نلمس في العملين معا مبادرة متقدمة لتكييف البلاغة التقليدية التي وصفها الباحث بالمقاربة المعيارية، لإقدارها على تحليل الخطابة المعاصرة وفق مقاربة نقدية؛ وفي الوقت نفسه، استدعاءَ أطر بلاغية تحليلية معاصرة وتطبيقها على خطب تراثية. وإن كان الباحث –في العمل الأول– قد أشار إلى أنه يوفق بين الغرضين لتقديم إطار تحليلي شامل للبلاغة المرئية في العصر الراهن[26]، فإن العملين مجتمعين يتجاوزان إعلانه ذلك، ونعلل هذا التجاوز بكون العمل الأول قد سعى إلى وضع منهج بلاغي

تحليلي يجمع أقطابا ثلاثة هي: تطوير آليات البلاغة القديمة(العربية والأرسطية[27]) لملاءمة خطب العصر الراهن، واستثمار آليات البلاغة الجديدة والمناهج النقدية الحديثة، ثم استدعاء منهجيات دراسة استجابات الجمهور؛ وفي كون العمل الثاني نموذجا تطبيقيا يحلل خُطباً تراثية(حادثة السقيفة) بالمزج بين مبادئ التحليل البلاغي للخطابة القديمة بعد استنباطها من كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ أو "الخطابة" لأرسطو وإعطاءها بعدا معاصراً، والنقد اللساني الاجتماعي المستقدم من نظرية التحليل النقدي للخطاب كما سنحيل إليه أسفله. فيتأكد أن المقترحين لا يُعنيان بالخطابة المعاصرة فقط، وإنما بالقديمة كذلك.

بيد أن التعامل مع الخطابة القديمة وفق هذا المنوال–سواء خطب سقيفة بني عامر أو غيرها–يبدو صعبا إلى حد كبير؛ ذلك لأن منطق البلاغة الجديدة ونقد استجابات الجمهور بُني على أساس صبغة الخطابة المعاصرة المذاعة على أسماع المتلقين وأنظارهم، سواء بطريقة مباشرة في ميدان ما، أو بطريقة غير مباشرة عبر وسائل التواصل الاجتماعي أو القنوات الفضائية. لذا، فإن نقد أداء الخطيب في تحليل الخطابة القديمة وفق آليات البلاغة الجديدة، يستوعب جميع الجوانب والمبادئ البلاغية، لكنه لا يستقيم في نقد أدائه التداولي والسلوكي، والأمر نفسه بالنسبة إلى نقد استجابات الجمهور.

يستحيل، إذن، نقد أداء الخطيب واستجابات الجمهور قديما؛ مما: "**جعل التركيز منصبا على النص أكثر من الأداء، وعلى العلامات اللغوية أكثر من غيرها من العلامات السيميوطيقية. كما حال عدم توافر وصف شامل دقيق لاستجابات الجمهور المتلقي لهذه الخطابات إلى تقييد إمكانيات دراسة بلاغة الجمهور**"[28]. ولعله المعطى الوجيه الذي اضطر عماد عبد اللطيف إلى التركيز على تصميم إطار بلاغي تحليلي

–وفق رؤية تجمع بين القديم والجديد–لتحليل الخطابة المعاصرة، ما دامت تتيح النقد من جميع الجوانب والمبادئ البلاغية اللغوية والسيميوطيقية والأدائية والسلوكية، فارتأى أن يسير مقترح التطوير:"**في مسارين؛ الأول هو تطوير المفاهيم والإجراءات التقليدية لكي تتلاءم مع الطبيعة النوعية للخطابة المعاصرة، والثاني ابتكار إجراءات ومفاهيم جديدة تستجيب للأبعاد الأكثر تفردًا في الخطابة الراهنة**"[29].

3.1. بلاغة الجمهور: إن الحديث عن بلاغة الجمهور من داخل مشروع عبد اللطيف حديثٌ عن أهم ابتكاراته واجتهاداته البلاغية؛ إذ شق طريقا جديدا للبلاغة العربية المعاصرة بالانتقال إلى دراسة استجابات المتلقي البلاغية (اللفظية وغير اللفظية)، وتجاوز حدود البحث عن إمكانات بلاغة المتكلم وقضاياها ومناهجها. وإن تعددت أوراق الباحث في هذا المجال، وتنوعت بين النظرية والتطبيقية، فإننا نحصر تعقب هذا الابتكار من خلال ثلاث دراسات تقدم نفسها وافية وملمة:

. بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته[30]

. منهجيات دراسة الجمهور: دراسة مقارنة[31]

. من الوعي إلى الفعل: مقاربات معاصرة في مقاومة الخطاب السلطوي[32]

تشكل هذه النماذج مجتمعةً مشروعا متكاملا يُتوج مسار الباحث لعقود في مجالات البلاغة القديمة والجديدة، فالناظر فيها يتحقق من مدى إفادة عماد عبد اللطيف من جهوده المبذولة في جل دراساته البلاغية المقيمة لجسر معرفي مزيل لكل الحواجز والإكراهات وسطوة الانتماءات، ويربط بين القديم والجديد، وبين العربي والغربي. كما لا يسعه إلا أن يخلص إلى أحقيته في أن ينسب لنفسه تأسيس فرع بلاغي جديد تحت مسمى (بلاغة الجمهور).

نعُد مقال عماد عبد اللطيف الموسوم بـ" بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته"، مقالا تأسيسيا لشعبة بلاغة الجمهور الذي أطلق عليه ابتداءً اسم (بلاغة المخاطَب)[33]؛ ففيه أعلن رسميا تأسيس هذا التوجه المعرفي البلاغي، لأنه عرف بموضوعه ومادته ومنهجه ووظائفه، كما عرض لأصوله النظرية والمقاربات والنظريات المعرفية التي يتقاطع معها ويفيد منها.

لقد بين صاحب المشروع في الأعمال الثلاثة –وخصوصا في المقال التأسيسي– أن بلاغة الجمهور تنطلق من مسلمة واضحة هي أن الخطابات البلاغية تستهدف الجمهور المتلقي لتحقيق أحد الغرضين: الإقناع أو التأثير؛ وأنهما غرضان يُمكنان صانع الخطاب من السيطرة على المخاطَب/المخاطَبين بالاستناد إلى ما تمنحه اللغة وطرق استخدامها وفق تدابير مخصوصة ومقصودة. أي إن مقصد التحكم في بناء المعتقدات والتوجهات والسلوكات يفرض على منشئي الخطابات اختيار الاستعمالات اللغوية –على صعيد جميع المستويات اللسانية والسيميائية والاتصالية–الكفيلة بإكراه الجمهور على استهلاكها، وسوقه إلى السقوط في شرك التضليل والخداع[34].

وتأتي بلاغة الجمهور لتُقدر المخاطَب على مقاومة بلاغة المتكلم واختياراته اللغوية والتقليل من خطورتها، أي إن: "**وعي المخاطب بالكيفيات التي تستخدم بها الخطاباتُ الجماهيرية اللغةَ يمثل خطوة أولى وضرورية لمقاومة هذه الخطابات وهيمنتها**"[35]. إن بلاغة المخاطَب حسب عماد عبد اللطيف لا تنحصر في مجرد بناء معنى الخطاب المُلقى عبر آلية التأويل، وإنما يستطيع أن يؤثر في فحوى هذا الخطاب من خلال طبيعة الاستجابات وردود الأفعال الصادرة عنه؛ فهو يتبنى: "**مفهوما للاستجابة يقرنها بالأفعال اللفظية وغير اللفظية التي ينتجها المتلقي في سياق محدد، استجابة لخطاب آخر**"[36]. وبذلك، يكون وعي الجمهور بطرق صناع الخطاب في تنسيق الأبنية النصية

غير البريئة تحصيناً له ومُعينا على فضح خطط الهيمنة والاستحواذ، وتوجيه الجماهير إلى المقاصد الخفية؛ أي إن بلاغة الجمهور توجه بلاغي جديد يقابل بلاغة المتكلم، وخصوصا إذا كان الخطاب ذا صبغة سلطوية.

لم ينفِ صاحب المشروع الأصولَ التاريخية المعرفية لاتجاه بلاغة الجمهور كما أعلنه، وإنما عرض في دراسته المعنونة بـ" منهجيات دراسة الجمهور: دراسة مقارنة" ثلاث بيئات علمية اهتمت بالجمهور بوصفه فاعلا أساسيا في العملية التواصلية الخِطابية، وهي البلاغة اليونانية، والبلاغة العربية القديمة، ثم البلاغة الجديدة[37]. فبالنسبة إلى البلاغة اليونانية، فصل بين موقفين يونانيين متناقضين من الجمهور، الأول لأفلاطون الذي يصفه بالحشد المروَّض الذي يقوده الخطيب ويتحكم فيه بمجرد الحديث[38]، والثاني لأرسطو الذي يرى أن الجمهور ضروري في الخطابة بأنواعها الثلاث (القضائية والاستشارية والاحتفالية)، وأن طبيعته تتحكم في الخطاب من ثلاثة أوجه: تحديد نوع الخطبة، واختيار أساليب الإقناع، ثم تكييف صورة المتكلم[39]. وكيفما كانت مواقف كل من أفلاطون وأرسطو، فإن ما يهم هذه الورقة هو بناء توجه بلاغة الجمهور على أسس بلاغية تنهل من المَعين اليوناني، وتستورد منه بعض مصطلحاته الضرورية وآراء رواده التي لا غنى عنها؛ إذ استنبط من تعارض الموقفين أن الجمهور -وإن كانت البلاغة اليونانية تركز على الإنشاء-شكل طرفا محوريا في معادلة الاتصال البلاغي عبر الخطابة.

أما في البلاغة العربية القديمة، ففي الحقيقة ينفي صاحب المشروع نسبة أية بلاغة للمخاطَب في التراث البلاغي العربي، ولكنه يشير إلى أن للعلماء العرب تلميحات وأفكارا وملاحظات تستحق بعض الاهتمام كما يقول: "**وعلى الرغم من أن البلاغيين العرب لم ينسبوا للمخاطَب بلاغة، ولم يفردوا لدراسته فصولا، أو يخصوه بمبحث**

مستقل، فإنهم قدموا في شأنه إشارات، وأفكارا، وملاحظات جديدة بالاهتمام"[40]. وقد أظهر أن العناية بالجمهور لدى البلاغيين العرب بادية منذ عنايتهم بمقتضى الحال ومراعاة حال المخاطَب(السامع)؛ كتشديد الجاحظ على مراعاة الأبعاد النفسية، والاجتماعية، والثقافية، والعُرفية للمتلقي أو السامعين في الخطابة والجدل مثلا.

يستحضر عماد عبد اللطيف في تأصيله لبلاغة الجمهور، كذلك، عناية البلاغيين العرب بوظائف الأساليب وتأثيرها على المخاطب سواء أكان فردا أم جمهورا، ومستشهدا بالآراء البلاغية حول الالتفات والخروج عن مقتضى الظاهر وما ينتج عنه من معانٍ وآثار. علاوة على ذلك، أثار تعريفَ ابن المقفع للبلاغة المميِّز بين الأوجه التي تجري فيها البلاغة، مثل السكوت والاستماع؛ وهنا يُظهر الباحث أن المخاطَب لم يكن مُغَيَّباً في الوعي البلاغي العربي إلى حد الإقصاء أو الإلغاء، وإنما كانت كل التوجيهات والإرشادات لبلاغة المتكلم تستهدف إقناع المتلقي والتأثير فيه، ثم انخراط المستمع في العملية التواصلية وإن كان بالصمت والاستماع والحركة والإيماء. فتكون نظرة البلاغيين العرب للمخاطَب –وإن كانت محدودة–إحدى الروافد الملهمة الواقفة وراء تأسيس فرع بلاغة الجمهور من قبل صاحب المشروع.

وبالنظر إلى علاقة مقترح بلاغة الجمهور بالبلاغة الجديدة، فيبرز من خلال استقراء الباحث لوجهة نظر بيرلمان وتيتيكا من المخاطَب؛ إذ عَدَّ دراستهما للحجاج[41] أحدَ أهم الإسهامات البلاغية في دراسات الجمهور خلال النصف الثاني من القرن العشرين[42]. وإن أبرز ما ارتكزت عليه نظرة عماد عبد اللطيف من موقف بيرلمان وتيتيكا فيما يتعلق بالمخاطَب، هو اعتبارهما الجمهور –تحديدا النوع الثالث[43]–كلَّ من يضعه المتكلم في ذهنه لإقناعه ببناء الحجج، وهو جمهور مغرق في المثالية. غير أنه ميز بين هذا التعريف المنسوب إلى تخصص البلاغة الجديدة، ومفهوم الجمهور في

بلاغة الجمهور بوصفه فاعلا معينا يوجد في مكان محدد، وليس بمثالي ولا نموذجي؛ بل إنه معروف صفة وحضورا[44].

أسعفنا البحث عن الروافد التاريخية المعرفية لبلاغة الجمهور من وجهة نظر عماد عبد اللطيف في أن نعثر على أبرز أصولها النظرية، فإلى جانب قيام تصوره على دراسات البلاغة التقليدية (العربية واليونانية) والمعاصرة(بيرلمان وتيتيكا) كما اتضح قبل قليل، فإننا نقف مع أصلين آخرين هما: نظريات القراءة والتلقي ونقد استجابة القارئ، ثم دراسات التواصل الجماهيري.

إن أنطق دليل على التقاء بلاغة الجمهور مع نظرية القراءة والتلقي ونقد استجابات القارئ –على اختلاف ميدانيهما–هو التركيز على تحليل استجابات المتلقي/المخاطَب وردود أفعاله في النشاط التواصلي، سواء تعلق الأمر بالاستجابة المادية الملموسة (حسب بلاغة الجمهور)، أو بتأويله لما يتلقى من معاني الآثار الأدبية حسب القراءة والتلقي. وفي جميع الأحوال، فإن المشترك هو أن اشتغال النظريتين ينصب على ما يصدر عن المخاطب الفرد أو الجماعة، وتقويم العملية التواصلية (الإبداعية أو الخطابية: الإقناعية والتأثيرية) بالربط بين استجابات المتلقي وتشكيل البنى النصية والتفاعلات الخِطابية.

وإنْ كان الباحث قد أشار إلى اشتراك بلاغة الجمهور ودراسات التلقي في التركيز على تحليل استجابات المخاطَب في مقابل باقي التوجهات البلاغية التي تُعنى بالنص، أو المنشئ، أو الحال[45]، فإنه قد دقق النظر في الحدود الفاصلة بينهما[46]؛ إذ يرى أن المجالين يختلفان في المادة المعنية بالتحليل، فإذا كانت بلاغة الجمهور تدرس الخطابات اليومية والاستجابات الجماعية المادية، اللفظية وغير اللفظية، في الفضاءات العمومية والسياقات الطبيعية، فإن دراسات التلقي تحلل الخطابات الأدبية والمعاني

المجردة التي من المتوقع أن يبنيها المتلقي عن طريق التأويل الأحادي، في السياقات المصنوعة والفضاء الفردي. يزداد الاختلاف افتضاحا بين التخصصين بالانتقال إلى الأسئلة البحثية التي ينطلقان منها حسب عبد اللطيف، فدراسات التلقي تبحث عن كيفية ضلوع القارئ في بناء المعنى وآلياته، ودور خلفيته المعرفية في ذلك، ثم المؤثرات المجردة المتدخل في تباين تأويلات القراء. أما بلاغة الجمهور، فتسأل عن الاستجابات الملموسة للمخاطَب في سياقها الحقيقي، وعلاقاتها ببناء النصوص والخطابات، ومدى قدرته على التحاور الآني مع الخطاب ونقده ومقاومته، وليس فقط السؤال عن بنائه للمعنى المقصود أو تجاوزه[47].

بالنسبة إلى علوم التواصل، نجد امتدادا لتوجه أساسي منها في بلاغة الجمهور كما أصل لها عماد عبد اللطيف، وهو توجه "دراسات الجمهور Audience Studies". وتختلف المقاربات داخل هذا التوجه بحسب المجال والموضوع؛ إذ تتصف البحوث بالبينية والامتداد، وتتوزع في تخصصات متعددة غير قابلة للحد أو الحصر، وأهمها: علم اللغة، علم النفس، علم الاجتماع، التواصل الآلي، البث الإذاعي، الصحافة، الإعلان، العلاقات العامة، والدراسات الثقافية. لقد حظي الجمهور في جميع هذه التخصصات بتركيز جد موغل في التحليل ونقد الاستجابات، وأُتخذت ردود الأفعال الصادرة عن الجماهير معطيات أولية للتفسير. وعلى الرغم من اختلاف طبيعة الاستجابة موضوع النقد والتقويم بالانتقال من مجال إلى آخر، فإن المشترك بينها كلها هو أنها استجابات مادية ملموسة؛ ولعل قابليتها للتحليل هي نقطة الالتقاء الأبرز بين بلاغة الجمهور وبحوث علوم التواصل.

يهدف توجه بلاغة الجمهور مع عماد عبد اللطيف إلى تحصين المخاطَب/المخاطَبين لمواجهة الخطابات البلاغية السلطوية والقدرة على كشف

مخططات التضليل والخداع. لذلك نرى أن أهم مفهومين يستحقان الوقوف عندهما هما: ***إنتاج المعنى والمقاومة.***

إن إنتاج المعنى في بلاغة الجمهور لا علاقة له بإنشاء المتكلم والبنى الشكلية للنصوص والتفاعلات الخطابية، وإنما المقصود هنا هو الكيفية التي يتلقى بها المخاطَب فحوى الخطاب فيبني المعنى المستفاد منه. إن عملية إنتاج المعنى تلك تتم انطلاقا من آليتي التفسير والتأويل كما يشير صاحب المشروع[48]، وليس معنى ذلك أن المخاطَب يكون طرفا سلبيا لا يتعدى دوره الاستهلاك والتلقي المباشر؛ وإنما يرى عبد اللطيف[49] أنه طرف فاعل وإيجابي ومتدخل في مخرجات العملية التواصلية البلاغية، إنْ بفضح حقيقة الخطاب، وإنْ بإظهار استجابات مقاوِمة.

وإنَّ مؤدى الحضور الفعلي الإيجابي للجمهور وفق هذا المنظور، هو أنه: "**يستطيع أن يدخل تغيرات جوهرية على الرسالة ذاتها من خلال استجاباته لها؛ حيث إن الاستجابات الآنية للمخاطب. تؤثر في الطريقة التي يبني بها المتكلم استراتيجيات خطابه**"[50]. وقد يتجاوز تأثيرها بناء الخطاب إلى مرحلة إنتاج مواقف مضادة لفظية وغير لفظية (صفير، تصفيق، صراخ، هتاف، تلويح..)، ذلك ما يعنيه صاحب المشروع بالمقاومة أو الاستجابات البلاغية.

نجد في استحضار ثنائية إنتاج المعنى من لدن المخاطَب ومقاومته للخطاب السلطوي، حضورا لأصلين نظريين آخرين: البلاغة النقدية والتحليل النقدي للخطاب. فمجمل ما تنهض لأجله النظريتان هو حماية البشر من أنواع السلط الممارسة بالتوظيف المشبوه للغة عبر الخطابات الساعية إلى فرض الهيمنة وتطويع المجتمعات. فنفهم أن بلاغة الجمهور تتقاطع في الشق النقدي منها مع هذين الأصلين، وخصوصا إذا استدعينا أحد المواقف الرائدة من موضوعي التحليل النقدي للخطاب والبلاغة النقدية،

كفان دايك (Van Dijk) الذي يرى فيه وسيلة لدراسة كيفية إنتاج السلطة ومقاومتها عبر النص والكلام[51]، وماكرو (Mckerrow)[52] الذي يرى أن وظيفة البلاغة تتمثل في مساءلة طرق إنتاج خطابات القهر الاجتماعي والسياسي، ثم تمكين المخاطَب من المستلزمات الكفيلة بمقاومته في إطار ما يدعيه بالوظيفة الحقيقية للبلاغة المتمثلة في الممارسة النقدية للسلطة ومقاومتها.

2. التحليل النقدي للخطاب يكاد أن يكون العثور على دراسة خالصة في التحليل النقدي للخطاب في المشروع البلاغي/الخِطابي لعماد عبد اللطيف، مستحيلا[53]؛ أعني أنه لابد للناظر في أبحاثه أن يجد آثار هذه النظرية المعاصرة وتطبيقاتها لصيقة بأحد مباحث البلاغة المذكورة أعلاه، مثل اقترانها بالبلاغتين القديمة والجديدة، ثم بلاغة الجمهور. ويؤكد هذا المعطى الارتباطَ وثيقَ الصلة بين أضلاع المشروع المعلنة في مقدمة هذا البحث، ويقر بأن البلاغة مع صاحب المشروع المراجَع تتآزر مع تحليل الخطاب والرؤية النقدية لتقديم قراءات بلاغية معاصرة تساير تطور المناهج والنظريات اللسانية والبلاغية والنقدية، وتحمل هم تفكيك الظواهر الإنسانية والسياسية واللغوية والخِطابية الراهنة. ونستدل على ذلك من خلال استقصاء تصوره بالنظر في أبحاث ثلاثة:

. تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية[54]

. إطار مقترح لتحليل الخطاب التراثي تطبيقا على خطب حادثة السقيفة[55]

. بيان التنحي وذاكرة الهزيمة: مدخل بلاغي لتحليل الخطاب السياسي[56]

إن أجلى مظاهر اقتران التحليل النقدي للخطاب ببلاغة الجمهور هو إعلان صاحب المشروع عن مقترح للدمج بينهما في مقاله المعنون بـ" تحليل الخطاب بين بلاغة

الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية"؛ ففيه قدم مقترحه دامجا بين هذين الإطارين النظريين كما يقول: "**يجمع التضافر الذي أقترحه في هذا البحث بين بلاغة الجمهور وتوجه نورمان فيركلف**"[57]. ويقصد بتوجه فيركلف(Fairclough) الإطار النظري للتحليل النقدي للخطاب، وتحديدا المقاربة الجدلية العلائقية التي ترى أن بين النص والمجتمع علاقة تحاورية تقوم على نسق جدلي بالأساس، فبنية النص محكومة ببنية المجتمع، والمجتمع نفسه متأثر بما تفرزه بنية النص من معانٍ وأفكار بعد تفاعله في السياق[58].

ليس من مهام هذه الورقة أن تخوض في أساسيات التحليل النقدي للخطاب بشتى مناهجه، ولا بمنطق اشتغال مقاربة فيركلف على وجه الخصوص[59]. بيد أن البحث يفرض –ما دمنا بصدد الكشف عن طبيعة التضافر المعلن–أن نذكر القارئ بمراحل التحليل وفق منظور فيركلف؛ إذ إن تحليل الخطاب عنده يقوم على ثلاث مراحل رئيسة: تحليل الممارسة النصية، وتحليل الممارسة الخِطابية، ثم تحليل الممارسة الاجتماعية[60]. وبخصوص المرحلة الثالثة، فطن عماد عبد اللطيف إلى ثغرة، أو لنقل إنه قد اكتشف بعدا مهمشا من قبل جل مناهج التحليل النقدي للخطاب؛ وعن ذلك يقول: "**ثمة بعد غائب في الإطار التحليلي الذي اقترحه فيركلف، وتم تطبيقه في عشرات –وربما مئات–الدراسات الأكاديمية. هذا البعد يخص العلاقة بين الخطاب والاستجابات والجمهور الذي يتلقاه**"[61]. فيتضح أن البعد المهمش هو البحث في العلاقة بين التشكلات البنيوية النصية والتفاعلات الخِطابية والاجتماعية، وتأثيراتها على الجمهور المتلقي.

من اكتشاف هذه الفجوة، انطلق صاحب المشروع ليؤصل –ولأول مرة–للدمج بين التحليل النقدي للخطاب وبلاغة الجمهور حتى يمكن الباحثين من الوصول إلى ما

يسميه بنقد الاستجابات، أو البعد الغائب كما نعته. ولعل ما أسعفه في خلق التضافر بين هذين الإطارين هو كونه مقترِحَ إطار بلاغة الجمهور بالأساس. والحق أن هذا التضافر من شأنه أن يضمن تكاملا معرفيا(بلاغيا/خِطابيا) لفضح تجليات الخطاب والأيديولوجيا على مستوى النص، والخطاب، والمجتمع، والتلقي. فيكون قد أثمر إطارا ثنائيا يركز عموما على أمرين بالغي الأهمية في تحليل الخطاب المعاصر، وهما: نقد سلطة الخطاب من خلال التوظيف اللغوي المراوغ، ونقد استجابات الجمهور وطبيعة ردود الأفعال (قبول، انصياع، رفض، مقاومة..).

يباشر عماد عبد اللطيف في المقال عينه، وفي المقالين الآخرين المذكورين أعلاه كذلك، التطبيقَ الفعلي لإطاره الثنائي المعلن؛ فقد قارب خطاب باراك أوباما بالقاهرة من خلال التحليل النقدي بمراحله الثلاثة، رابطا المستنتجات بنقد استجابات الجمهور من خلال التركيز على تنوع الأسلوب اللغوي والاختيارات اللسانية على صعيد الممارسة النصية، وتفاعل الخاطب والمتكلم على صعيد الممارسة الخِطابية، ثم آثار كل ذلك اجتماعيا وسلطويا. غير أنه درس استجابات الجمهور وتعليقاته الآنية والتالية في الواقع وفي العالم الافتراضي مبرزا اصطدام سلطة البلاغة بسلطة الجمهور.

ووقف هذه الرؤية البلاغية الخطابِية النقدية نفسها، درس كذلك خطب حادثة السقيفة في المقال الثاني: "إطار مقترح لتحليل الخطاب التراثي تطبيقا على خطب حادثة السقيفة". غير أن هذا المقال ينفرد بخصيصة لم تتهيأ لسابقه، وهي أن عماد عبد اللطيف استوحى المعايير الأساسية لنقد بلاغة الجمهور من مجمل الخصائص اللغوية والبلاغية والأدائية والسيميائية التي وضعها الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين)؛ وبذلك نجد أن ميزة هذا العمل هي تعزيز أدوات البحث في بلاغة الجمهور بآليات بلاغية عربية قديمة، ناهيك عن دمجها مع التحليل النقدي للخطاب.

البحث الوحيد الذي طبق فيه الباحث الإطار النظري للتحليل النقدي للخطاب خالصا من دون دمجه ببلاغة الجمهور، هو المقال الثالث: "بيان التنحي وذاكرة الهزيمة: مدخل بلاغي لتحليل الخطاب السياسي". إذ لا أثر لنقد استجابات الجمهور بالمعنى الحقيقي لهذا الإطار كما وضع أسسه. وإن كنا نعثر على بعض التعليقات على ردود أفعال الشعب المصري في تلقيهم لخطاب التنحي للسادات، فإن البحث لم يتضمن أية رؤية نقدية لبلاغة المخاطَب. ومرد ذلك إلى كون هذا المقال قد أُلف سنة 2010، أي قبل ثلاث سنوات من توصل الباحث إلى فكرة الدمج.

إن المستفاد الأهم من قراءة الأعمال الثلاثة المتصلة بالتحليل النقدي للخطاب هو أن مقترح الدمج بين التحليل النقدي للخطاب وبلاغة الجمهور قد أتاح لصاحب المشروع مساحة أوفر لإثراء أدوات التحليل البلاغي النقدي من خلال الجمع بين تحليل الممارسة اللسانية (النصية والخطابية)، وتحليل الممارسة الاجتماعية، وتحليل استجابات الجمهور. مما ساعد على كشف الحجاب عن عنصر مهم ضمن المعادلة الخِطابية لم ينتبه إليه البعض من محللي الخطاب المعاصر، وهو تأثير المخاطَب في بناء النص وإلقاء الخطب آنيا، ثم بروز علاقة الاصطدام بين سلطة الخطاب وسلطة الجمهور.

لم يقتصر إسهام عماد عبد اللطيف في دراسات الخطاب النقدية على مقترح الدمج بين بلاغة الجمهور والتحليل النقدي للخطاب، وإنما تعداه إلى إضفاء طابع شمولي على إجراءاته التحليلية باستحضار ما تزخر به السيميائيات من آليات وأدوات وجهاز مفهومي لإثراء البحث في الممارستين: النصية والخطابية؛ إذ أدرج في المستوى المتعلق بالأداء والتفاعل في البلاغة والخطابة المرئيتين، تحليل سلوكات المتكلم والمخاطَب على حد سواء، وكذا مختلف أنواع الأيقونات الدالة من حركات وصفير وتصفيق وهتاف، ولعله قد أفاد هذا الوعي من إطار بلاغة الجمهور التي لا تغفل أية جزئية

لفظية أو غير لفظية في العملية التواصلية للممارسة الخطابية، بما فيها الشعارات المرفوعة صوتا وكتابة وإشارة.

نجد نظير هذا التعاطي الموسع مع عمليتي إنتاج الخطاب من قبل منشئه وتفسيره من قبل الجمهور، مع الوعي بحتمية التفسير اللفظي وغير اللفظي، في مقاله المعنون بـ "**إطار مقترح لتحليل الخطاب التراثي تطبيقا على خطب حادثة السقيفة**" كما سبقت الإشارة إلى ذلك في محور بلاغة الجمهور أعلاه؛ إذ استُحضرت في دراسة خطابات الصحابة من الأنصار والمهاجرين جوانبُ تتعلق بغير المنطوق وبطريقة الكلام وهيئة المتكلم وحركاته، كالقيام والقعود والرقود، ومن أمثلة ذلك ما سماه عماد عبد اللطيف بتقنيات الأداء الخطابي. إن الجديد فيما قام به الباحث في هذا المقال هو استدعاءه للمعايير غير اللفظية المعتبَرة في التحليل من كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ، ومحاولته تكييفها مع مقترح الدمج ووفق مقاربة معاصرة، وخير نموذج هو استشهاده بتعرض الجاحظ لقضايا: "**حال الخطيب أثناء الخطابة، كما تظهر في رباطة الجأش وسكون الجوارح، والنظر في عيون الناس، والنحنحة، ومس اللحية، كما عالج ظواهر فسيولوجية مصاحبة لأداء الخطبة في كفاءة الخطيب، سواء أكانت ظواهر سلبية مثل الارتعاش والرعدة والعرق، أم إيجابية مثل كثرة الريق**"[62]. إضافة إلى طريقة الإمساك بالعصا ووضع العمامة والركوب على الدواب.

بمقدورنا أن نلخص جل ما قدمه صاحب المشروع –انطلاقا من النظر في المقالات الثلاث–في ثلاثة عناصر أساسية هي:

- الاستدراك على تغييب نقد استجابة الجمهور في التحليل النقدي للخطاب باقتراح دمجه ببلاغة الجمهور.
- مراعاة الإشارات السيميائية في تحليل الممارسة الخطابية.

- استدعاء التراث البلاغي العربي وجعله أحد أسس المقترح وفق منظور معاصر.

3. النظرية النقدية: أبرز سمتين لهذا المشروع البلاغي هما صبغة التكامل بين حقول معرفية شتى بنظرة شمولية موفقة بين تحليل الإنتاج ونقد التفسير، ثم استحضار هاجس الدفاع عن المستهدَفين بالخطابات، سواء كانوا أفرادا أم جماعات؛ بل إنه يقدم السبل التي قد تيسر على الجماهير تلقي الخطابات بنوع من الوعي بالقدرات الخطابية التضليلية والتطويعية، ونقدها ثم مقاومتها. ومن المرجح أن يسجل القارئ المتخصص لهذه الورقة التقاء هاتين السمتين مع توجه فلسفي معاصر يحمل الهاجس نفسه، نقصد هنا الفكر النقدي الاجتماعي لمدرسة فرانكفورت؛ فهذه المدرسة "**تضطلع بمهمة رئيسية، تتمثل في ممارسة نمط من النقد الفلسفي ينصب أساسا على الوضع الاجتماعي قصد تغييره وتجاوزه**"[63]. إذ إن انتقادات فلاسفة فرانكفورت ركزت خصوصا على المجتمعات المتقدمة المعاصرة، وتحديدا المجتمعات الرأسمالية التي تضمن بقاءها ورخاءها عبر الممارسات السلطوية اجتماعيا واقتصاديا؛ ولعل هذه المهمة هي الغرض عينه الذي استماتت إسهامات عماد عبد اللطيف في تقريبه إلى القراء من خلال دراسات البلاغة وتحليل الخطاب.

وإنْ كان مفهوم الخطاب بلاغيا ولسانيا يختلف عن مقابله في الفلسفة، وخصوصا في أوساط مدرسة فرانكفورت؛ فإن الإطارين معا ينهضان بمهمة واحدة متمثلة في نقد الإنتاج السلطوي القاصد إلى الهيمنة على الناس، وقبر الإرادات، ونزع القدرة على الاختيار. وبصفة عامة، إن الدرس اللساني والبلاغي الناقد يتقاطع مع الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت في البعد المتصل بحماية مستهلكي الخطاب من مظاهر الهيمنة بشتى أصنافها، ونرى أن هذا الاتصال يشكل محور مشروع عماد عبد اللطيف.

يتجسد هذا التقاطع بين الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت والمقاربات اللغوية والبلاغية الناقدة في مشروع عماد عبد اللطيف بأصدق صورة؛ فالباحث يستحضر –سواء في أعماله البلاغية أو الخِطابية أو في مقترح الدمج بين بلاغة الجمهور والتحليل النقدي للخطاب–الفعل النقدي بوصفه نقدا اجتماعيا عبر الأطر النظرية والتحليلية البلاغية والخِطابية، وليس مجرد ممارسة بحثية أكاديمية فقط. إن النقد الاجتماعي بهذا المعنى ليس معزولا عن واقع الناس وحاجاتهم الاجتماعية، وإنما هو مقرون بنية إحداث التغييرات الاجتماعية الملحة.

ينكشف انجذاب عماد عبد اللطيف إلى النظرية النقدية بشكل لافت للنظر في كتاباته البلاغية التي تُظهِر تعلُّقَه بأبعاد النقد الاجتماعي، وأبرز أوجه ذلك هو استناده إلى كتاب كبار في مجال "**البلاغة النقدية**"، ونذكر من بينهم الرائدين ريمي مكرو(Mckerrow Raymie) ومايكل ماكجي (Michael Mcgee) وتأثره بنظرتيهما إلى البلاغة وتصوريهما في التحليل البلاغي؛ ثم محاولته استنباط أهم وظائف البلاغة النقدية، إذ يرى أن: "**مهمتها تكمن في الانخراط في نقد مستمر ثابت للخطاب**"[64]، وخصوصا الخطاب المكرس للقهر والقمع الاجتماعيين. فتكون أُم وظائف البلاغة النقدية حسب صاحب المشروع المراجع هي فضح مظاهر الهيمنة على البشر ونصرة المقهورين بفعل الخطابات القمعية.

ويشكل مقترح بلاغة الجمهور بدوره شهادة صريحة على مركزية النظرية النقدية في مشروع عماد عبد اللطيف، خصوصا إذا ما استحضرنا مفهوم نقد استجابات المخاطَب الذي يعكس الحرص الشديد على إعداد الجماهير للتلقي اليقظ للخطابات وتمكينهم من القدرة على توقي مخاطر الأيديولوجيات المنصهرة في لغات منشئي الخطابات ومضامينها السلطوية. فما تشديده على ضرورة تحليل التصفيق والهتاف في

حالة الخضوع إلى الخطاب السلطوي، والصفير والصراخ في حالة مقاومته، إلا إصرار على حتمية نقد ردود الأفعال الجماعية، سواء كانت لفظية أو سيميائية.

من جهة أخرى، يؤكد انفتاح الباحث على نظرية التحليل النقدي للخطاب ودمجها مع بلاغة الجمهور حضور النظرية النقدية في تصوره المعرفي الذي تجسد على أرض الواقع في جل كتاباته عن الخطاب وتحليله؛ خصوصا وأن التحليل النقدي للخطاب يستند إلى أصول معرفية ناقدة لها امتدادات صريحة في مشروع عماد عبد اللطيف، وأبرزها اللسانيات النقدية والفلسفة النقدية. نؤكد ذلك بالرجوع إلى أحد رواد التحليل النقدي للخطاب، توين فان دايك (Teun Van Dijk) الذي صرح بأن: "**مبادئ التحليل النقدي للخطاب موجودة بالفعل في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت.. وبدأت تلك المبادئ التركيز على اللغة والخطاب فضلا عن اندماجها مع اللسانيات النقدية**"[65]. وما دام المشروع قد تأسس –إلى جانب البلاغة–على نقد اللغة والاستجابات والتحليل النقدي للخطاب، فإنه يلتقي مع تلك المبادئ النقدية لا محالة.

وعليه، فإن احتضان المشروع لانشغالات بلاغية ناقدة وأخرى مندرجة ضمن التحليل النقدي للخطاب، ليس من محض الصدفة؛ وإنما ما أملى هذا الانفتاح والتشعب هو الهاجس النقدي الذي اشترط الجمع بين البحث اللساني النقدي وتحليل الخطاب والفلسفة النقدية في مقاربة الخطابات السلطوية وغيرها. هكذا، تتراءى الأضلاع الثلاثة لمثلث المشروع، وتتلخص في البلاغة والتحليل النقدي للخطاب والنظرية النقدية من أصلها الفلسفي (مدرسة فرانكفورت). لكن الضلع الثالث (النظرية النقدية) يقدم نفسه وسيلة للربط بين الضلعين الآخرين؛ أو لنقل إنه الجسر الذي يصل بين البلاغة والتحليل النقدي للخطاب.

خاتمة: تتآزر، إذن، البلاغة والتحليل النقدي للخطاب والنظرية النقدية في اشتغال عماد عبد اللطيف على الخطاب، والجمهور، ونقدهما. ولا ننكر أن النقد عبر آليات البلاغة وتحليل الخطاب عنده يتخذ طابعا اجتماعيا؛ لا نعني النقد الاجتماعي للأدب، وإنما المقصود هو فضح الخطابات وكيفيات تشكلها في الممارسة النصية والممارسة الخطابية، ثم تأثرها بالممارسة الاجتماعية والجمهور، وتأثيراتها فيهما، خصوصا إذا كان الخطاب سلطويا. إن النقد في هذا المشروع خطاب مقاوم، أو على الأقل معرٍ لأطماع الهيمنة، وملقِّن لأدبياتِ مقاومةِ السلطة على اختلاف أنواعها. ولعل هذا المنطق هو ما يفسر تقاطع المشروع مع اللسانيات النقدية، والبلاغة الناقدة، والفلسفة النقدية لمدرسة فرانكفورت.

لقد تبين أن البحث اللغوي والبلاغي بات لا يطيق الإجراءات الوصفية، أو التفسيرات الداخلية للغة والخطاب في حدود البنية وتشكلها؛ بل انتقل –لزاما وليس اختيارا– إلى إيجاد تفسيرات اجتماعية لطرق البناء والتشكل والإنتاج. والأكثر من ذلك، بات من الواجب أن يحمي الجمهورَ ويكتشف الأيديولجيات المتوارية خلف الاختيارات البلاغية والخِطابية. ولنا في بلاغة الجمهور ونقد استجاباته خير مثال على أن البحث في هذين المجالين يقتضي حمل هم النقد الاجتماعي، ومراعاة خطابات الحياة اليومية، وتحصين المخاطَب.

الهوامش:

[1]عماد عبد اللطيف، أزمة المصطلح البلاغي العربي: مظاهر وأسباب ومقترحات، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد التاسع، بني ملال، المغرب، 2016.

[2]عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب البلاغي: دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف، كنوز المعرفة، عمان، الأردن،2014.

[3]أحمد يوسف علي، الاستعارة المرفوضة في الموروث البلاغي والنقدي، كنوز المعرفة، ط1، الأردن، 2015.

[4]المرجع نفسه، ص6.

[5]عماد عبد اللطيف، إطار مقترح لتحليل الخطاب التراثي تطبيقا على خطب حادثة السقيفة، مجلة الخطاب، العدد الرابع عشر، تيزي وزو، 2013.

[6]عماد عبد اللطيف، أفلاطون في البلاغة العربية، من التهميش إلى الاستعادة، مجلة الحوار الثقافي، عدد ربيع وصيف 2015، مستغانم، الجزائر. وقد أعيد نشر البحث مع بحوث أخرى ضمن كتاب "ضد البلاغة: الخطابة والسلطة والتضليل عند أفلاطون"، تحرير عماد عبد اللطيف، دار العين، القاهرة، 2017.

[7]المرجع نفسه، ص 64.

[8] نقلا عن :جميل صليبا، من أفلاطون إلى ابن سينا، 1983، دار الأندلس، بيروت، ط3 ، ص19.

[9]عماد عبد اللطيف، أفلاطون في البلاغة العربية، من التهميش إلى الاستعادة، مجلة الحوار الثقافي، ص66.

[10] المرجع نفسه، ص67.

[11]عماد عبد اللطيف، في مديح الصمت والبراعة: إطلالة على بلاغات منسية، مجلة العربي، العدد 669، 2014، ص138.

[12]المرجع نفسه، ص140.

[13] عماد عبد اللطيف، البلاغة الغربية المعاصرة: مدخل موجَّه للباحث العربي، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد 10، بني ملال، 2017.

[14]عماد عبد اللطيف، مناهج الدرس البلاغي العربي المعاصر: مقاربة نقدية، ضمن كتاب "اللغة العربية وآدابها: نظرة معاصرة"، جامعة كيرالا، الهند، 2015، ص. ص 241-254.

[15]عماد عبد اللطيف، مبادئ البلاغة: كيف نطوع البلاغة الكلاسيكية لدراسة الخطابة المعاصرة؟، ضمن كتاب "بلاغة الخطاب السياسي"، إعداد وتنسيق محمد مشبال، كلمة للنشر والتوزيع، ط1، تونس، 2016.

[16]عماد عبد اللطيف، البلاغة الغربية المعاصرة: مدخل موجَّه للباحث العربي، ص58.

[17]أنظر مثلا: جميل الحمداوي، من البلاغة الكلاسيكية إلى البلاغة الجديدة، دار الألوكة للنشر، 2014.

[18]عماد عبد اللطيف، مناهج الدرس البلاغي العربي المعاصر: مقاربة نقدية، ص243.

[19]المرجع نفسه، ص245.

[20] للاطلاع على بعض المؤلفات القديمة المختصة بالحجاج من المغرب والأندلس، يُنظر مثلا:

- الإحكام في أصول الأحكام، الفصل في الملل والأهواء والنحل، التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، إبطال القياس، الرسائل الحزمية، في الجدل؛ لابن حزم الأندلسي(ت456هـ)
- المنهاج في ترتيب الحجاج، وإحكام الفصول في أحكام الأصول؛ للباجي(ت474هـ)
- كنز الوصول إلى معرفة الأصول لابن خلدون البزدوي (ت493هـ)

[21] عماد عبد اللطيف، البلاغة الغربية المعاصرة: مدخل موجَّه للباحث العربي، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد 10، بني ملال، 2017، ص58.

[22] المرجع نفسه، ص59.

[23] المرجع نفسه، ص57.

[24]عماد عبد اللطيف، مبادئ البلاغة: كيف نطوع البلاغة الكلاسيكية لدراسة الخطابة المعاصرة؟، ضمن كتاب "بلاغة الخطاب السياسي"، إعداد وتنسيق محمد مشبال، كلمة للنشر والتوزيع، ط1، تونس، 2016.

[25]عماد عبد اللطيف، إطار مقترح لتحليل الخطاب التراثي تطبيقا على خطب حادثة السقيفة، مجلة الخطاب، العدد الرابع عشر، تيزي وزو، 2013.

[26]عماد عبد اللطيف، مبادئ البلاغة: كيف نطوع البلاغة الكلاسيكية لدراسة الخطابة المعاصرة؟، ص62.

[27]المرجع نفسه، ص64.

[28]المرجع نفسه، ص62.

[29] المرجع نفسه.

[30]عماد عبد اللطيف، بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته، ضمن كتاب "السلطة ودور المثقف"، جامعة القاهرة، 2005، ص ص 07-36.

[31]عماد عبد اللطيف، منهجيات دراسة الجمهور دراسة مقارنة، ضمن كتاب "بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات"، تحرير وتقديم صلاح حسن حاوي وعبد الوهاب صدقي، دار، شهريار، ط1، العراق، 2017.

[32]عماد عبد اللطيف، من الوعي إلى الفعل: مقاربات معاصرة في مقاومة الخطاب السلطوي، مجلة ثقافات، العدد 22، كلية الآداب، جامع البحرين، البحرين، 2009، ص ص 68-81.

[33]عماد عبد اللطيف، بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته، ص07.

[34]المرجع نفسه، ص17.

[35]المرجع نفسه.

[36]عماد عبد اللطيف، منهجيات دراسة الجمهور دراسة مقارنة، ص147.

[37]المرجع نفسه، ص158.

[38]المرجع نفسه، ص ص 159-160.

[39] المرجع نفسه، ص ص 161-163.

[40] المرجع نفسه، ص165.

[41]Perlman Ch. Olbrechts-Tyteca, La nouvelle Rhétorique: Traité de l'Argumentation, Presses Universitaires de France, 1958.

[42]عماد عبد اللطيف، منهجيات دراسة الجمهور دراسة مقارنة، ص172.

[43]المرجع نفسه.

[44]المرج نفسه، ص173.

[45]المرجع نفسه، ص142.

[46] المرجع نفسه، ص143.

[47] المرجع نفسه، ص ص 143-147.

[48]عماد عبد اللطيف، بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته، ص578.

[49]المرجع نفسه.

[50]المرجع نفسه.

[51] Teun Van Dijk(2001): Critical Discourse Analysis in: the Handbook of Discourse Analysis, edited by: Deborah Schiffrin, Deborah Tannen, and Heidi E. Hamilton, Blackwell Publishers Ltd 2001, p352.

[52]Mckerrow R.E(1991) :Critical Rhetoric in a Postmodern World. Quarterly Journal of Speech 77, p450.

[53]باستثناء مقال "بيان التنحي وذاكرة الهزيمة: مدخل بلاغي لتحليل الخطاب السياسي" الذي طبق فيه الإطار النظري للمقاربة العلائقية الجدلية لنورمان فيركلف.

[54]عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية، مجلة فصول، الهيئة العامة للكتاب، العدد 83-84، مصر ، 2013.

[55]مرجع سابق.

[56]عماد عبد اللطيف، بيان التنحي وذاكرة الهزيمة: مدخل بلاغي لتحليل الخطاب السياسي، مجلة ألف، الجامعة الأمريكية، العدد 30، 2010.

[57]تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية، ص512.

[58] محمد يطاوي، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب (في الأصول ونقد المناهج)، مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية، المجلد الثالث، العدد الأول، أبريل 2018، ص363.

[59]للاطلاع على مناهج التحليل النقدي للخطاب ومرجعياته اللغوية والمعرفية وتطوره التاريخي، ينظر: محمد يطاوي، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب (في الأصول ونقد المناهج)، مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية، المجلد الثالث، العدد الأول، أبريل 2018.

[60]المرجع نفسه، 364-365.

[61]تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية، ص512.

[62]عماد عبد اللطيف، إطار مقترح لتحليل الخطاب التراثي تطبيقا على خطب حادثة السقيفة، ص189.

[63]كمال بومنير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، ط1، الرباط، دار الأمان، 2010، ص41.

[64]نقد بلاغة السلطة وتقويض سلطة البلاغة: دراسة في مشروع البلاغة النقدية، مجلة نزوى، العدد 66، 2011، ص51.

[65] توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ترجمة غيداء العلي، مراجعة وتقديم عماد عبد اللطيف، ط1، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2014، ص189.

المصادر والمراجع:

1. بومنير كمال، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، ط1، الرباط، دار الأمان، 2010.
2. الحمداوي جميل، من البلاغة الكلاسيكية إلى البلاغة الجديدة، دار الألوكة للنشر، 2014.
3. صليبا جميل، من أفلاطون إلى ابن سينا، دارالأندلس، بيروت، ط3، 1983.
4. عبد اللطيف عماد، بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته، ضمن كتاب "السلطة ودور المثقف"، جامعة القاهرة، 2005.
5. عبد اللطيف عماد، من الوعي إلى الفعل: مقاربات معاصرة في مقاومة الخطاب السلطوي، مجلة ثقافات، العدد 22، كلية الآداب، جامع البحرين، البحرين، 2009.

6. عبد اللطيف عماد، بيان التنحي وذاكرة الهزيمة: مدخل بلاغي لتحليل الخطاب السياسي، مجلة ألف، الجامعة الأمريكية، العدد 30، 2010.
7. عبد اللطيف عماد، نقد بلاغة السلطة وتقويض سلطة البلاغة: دراسة في مشروع البلاغة النقدية، مجلة نزوى، العدد 66، 2011.
8. عبد اللطيف عماد، تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية، مجلة فصول، الهيئة العامة للكتاب، العدد 83-84، مصر، 2013.
9. عبد اللطيف عماد، إطار مقترح لتحليل الخطاب التراثي تطبيقا على خطب حادثة السقيفة، مجلة الخطاب، العدد الرابع عشر، تيزي وزو، 2013.
10. عبد اللطيف عماد، تحليل الخطاب البلاغي: دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف، كنوز المعرفة، عمان، الأردن، 2014.
11. عبد اللطيف عماد، في مديح الصمت والبراعة: إطلالة على بلاغات منسية، مجلة العربي، العدد 669، 2014.
12. عبد اللطيف عماد، أفلاطون في البلاغة العربية، من التهميش إلى الاستعادة، مجلة الحوار الثقافي، عدد ربيع وصيف، مستغانم، الجزائر، 2015.
13. عبد اللطيف عماد، مناهج الدرس البلاغي العربي المعاصر: مقاربة نقدية، ضمن كتاب "اللغة العربية وآدابها: نظرة معاصرة"، جامعة كيرالا، الهند، 2015.
14. عبد اللطيف عماد، أزمة المصطلح البلاغي العربي: مظاهر وأسباب ومقترحات، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد التاسع، بني ملال، المغرب، 2016.
15. عبد اللطيف عماد، مبادئ البلاغة: كيف نطوع البلاغة الكلاسيكية لدراسة الخطابة المعاصرة؟، ضمن كتاب "بلاغة الخطاب السياسي"، إعداد وتنسيق محمد مشبال، كلمة للنشر والتوزيع، ط1، تونس، 2016.
16. عبد اللطيف عماد، البلاغة الغربية المعاصرة: مدخل موجَّه للباحث العربي، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد 10، بني ملال، 2017.

17. عبد اللطيف عماد، منهجيات دراسة الجمهور دراسة مقارنة، ضمن كتاب "بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات"، تحرير وتقديم صلاح حسن حاوي وعبد الوهاب صدقي، دار، شهريار، ط1، العراق، 2017.

18. عبد اللطيف عماد، "ضد البلاغة: الخطابة والسلطة والتضليل عند أفلاطون"، تحرير عماد عبد اللطيف، دار العين، القاهرة، 2017.

19. فان دايك توين، الخطاب والسلطة، ترجمة غيداء العلي، مراجعة وتقديم عماد عبد اللطيف، ط1، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2014.

20. يطاوي محمد، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب (في الأصول ونقد المناهج)، مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية، المجلد الثالث، العدد الأول، أبريل 2018.

21. يوسف علي أحمد، الاستعارة المرفوضة في الموروث البلاغي والنقدي، كنوز المعرفة، ط1، الأردن، 2015.

22. Mckerrow R.E(1991) :Critical Rhetoric in a Postmodern World. Quarterly Journal of Speech 77.

23. Perlman Ch. Olbrechts-Tyteca, La nouvelle Rhétorique: Traité de l'Argumentation, Presses Universitaires de France, 1958.

24. Van Dijk, Teun (2001): Critical Discourse Analysis in: the Handbook of Discourse Analysis, edited by: Deborah Schiffrin, Deborah Tannen, and Heidi E. Hamilton, Blackwell Publishers Ltd 2001.